ســـــعيد . . . !

للاستاذ صلاح الدين المنجد

[أيها الأغنياء المحرومون .. إن هذا الفقير السعيد ، لأشرف منكم جميعاً .. !]

كان الضباب ينحدر ببطء من حدور الجبال نحو القرية الهاجعة فى أحضان الظلام ، وكان الهواء يعصف ويزأر ، يهب من حقول الذرة تارة يحمل الزوابع والتوابع ، ويهبط من الجبال اللاذى بالزعرور ، يحمل الجن والعفاريت ، كأنه يريد أن ينقض على هذه القرية فينسفها نسفاً .

وكانت الطرقات قفراً ، لا تلمح على ظهرها أحداً ، فقد دفع الهواء العاصف أهل القرية أن يختبئوا فى دورهم تاركين المصاطب التى تحلقوا فوقها ، يستمعون إلى أحاديث الحصاد ، ويتحدثون عما لديهم من الآمال والأشغال .

وساد الظلام فى كل مكان ... وعبث الهواء بمصباح القرية المعلق أمام الجامع فأطفأه وألقى به فى الأرض . وانتشر فوق القرية رعب وكآبة ، ونام القرويون ... حتى الحارس (أبو شنب) فقد ترك عصاه الغليظة أمام باب الجامع ، وأغفى وراء الباب .

وفجأة ظهر فى طرف القرية ، من إحدى العلالى ، نور ضعيف ثم أخذ يشتد ويقوى حتى نارت العلية ... وظهر رجل يقترب من نافذتها .

ولو أن الحارس كان مستيقظا لأسرع إلى العلية يستطلع أمر هذا النور ، ويسأل صاحبها إطفاءه ، لئلا يستدل العدو على القرية فيهاجمها بجنده ، ويصب عليها نار مدافعه .

ووقف الرجل فى النافذة ، فنظر حوله ، ثم أخذ يخطو فى العلية خطوات غير متزنة ، ثم عاد إلى النافذة ينظر ... كأنه يترقب أمراً ، أو يستطلع سراً ، ثم انفتل إلى المصباح ، فأضعف نوره ، وعاد إلى النافذة يتمتم بصوت ضعيف كأنه يخشى أن يسمعه أحد :

— لقد سخر منى ، عيرنى بالفقر والعجز ، لم يخجل من شيبى وضعفى ... لقد تخطيت الستين ... أكتب علىّ أن أكون عبداً له ، أتعب ليستريح ، وأجوع ليشبع ، وألبس المرقّع ليرفل بالحرير . ها أنذا لا أملك شيئاً ، وأولادى الصغار قضوا ثلاث ليال لا يأكلون ، بل لا يجدون اللقمة الواحدة . أسمعهم تملأهم بى ، وأنا مختبىء أمام باب الدار ، أسمع أصواتهم ترن فى أذنى بكاؤهم ، فيتفطر قلبى ، وينهمل دمعى . إنهم قطع منى فكيف أتركهم يجوعون ... إنهم أولادى ، فكيف أدعهم يبكون ... ليقولوا إنى سارق وإنى مجنون ... وليسوقونى إلى السجن ، فهم كفرة لا يرحمون ، ولأطعم أولادى . فلعلهم يشبعون . إن الدراهم عندى ، ولن أرجعها . ولكن ، ما أدرى ! ما الذى يعبث فى صدرى ، وبين أضلعى ؟ إنه يضنينى ويقلقنى ... ما أشد هذه الليلة علىّ ... ! إنها لأثقل من هذه الجبال وأثقل من السماء . ما ذا أفعل يارب ؟ إن عفريتاً يحطم منى . كأن فى يده معولا فهو به يضربنى . إنى لأسمع همساته فى كل دقيقة ، بل فى كل طرفة ترنّ فى أذنىّ وتطنّ « هات الدراهم ، هات الدراهم » لكن لا ، ليس فى العلية أحد ، أجنى يكلمنى ؟ ماذا أصابنى ؟ »

ورفع الشيخ يده إلى جبينه يمسح العرق عنه ، ثم حول بصره إلى الغرفة فنفضها ، عله يجد فيها الذى يقلقه . ولكنه لم يجد أحداً . فخطر على باله أن ينام . لقد حاول النوم من قبل ففر منه النوم . أما الآن ، فلعل النوم يشفق عليه ، وينقذه من هذا العفريت الذى يطن فى أذنيه . فاضطجع على كيس من القش اتخذه فراشا . فقرأ وتعوذ ، ودمدم وهمهم ، وسرد ما حفظه عن شيخ القرية يوم الجمعة ، مما يذهب الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس . وتقلب فى فراشه ذات اليمين وذات الشمال . وحاول أن ينسى الدراهم ، بل تمنى لو كان أصم ، فلا يسمع هذا الهمس الناعم ، ولكن صورة الدراهم كانت تملأ عينيه ، وهمس العفريت كان يرن فى أذنيه .

وجفا فراشه ، وقد تحطم جسمه . وأخذ يطوف حول العلية ، مطرق الرأس ، حانى الظهر . كيف الخلاص مما يسمع ؟ إن هذا الهمس : « هات الدراهم » يكاد يقتله ، وما ذا فعل ؟ ألأنه سرق ؟ وقلبه ماذا أصابه ؟ إنه يكاد يتمزق فى صدره . ونادى : « ألا دعنى أيها العفريت دعنى ... اخرج من صدرى ، ابتعد عنى . آه لو كنت شاباً ... دعنى فأنا شيخ محطم أكاد أموت .

دعني، فما أخذت الدراهم لنفسي، ولا لزوجتي، ولكن لأولادي. انظرهم كيف يبسوا من الهزال، وسقموا من الجوع! أيبقون بلا رغيف ثلاثة أيام وفي صناديق جاري الدنانير؟ أيموت صغاري من الجوع، ولي عند (البيك) — ألا لعنة الله على (البيك) — أجرة ثلاثة شهور؟ لقد طردني، أيها العفريت، ولم ينقدني أجرها. فطفقت أشكو، فلم يصغ أحد إلي. لقد قالوا إني كاذب، لأني فقير ضعيف. وإنه صادق لأنه سيد القرية الغني فدعني. فلم أعد أطيق. اذهب إليه، فهو مجرم كبير. اذهب إليه، وارقب غشه ودسه ... فإني فقير. اخرج أنت يا قلبي معه لأستريح. لقد طلبت بنيتي قرشاً فقلت لها غداً، وسألني بني ثوباً، فقلت له غداً. وبت أخجل أن أراهما. أفلا أسرق يارب، ويا عفريت، ويا قلب، لأطعمهم وأفرحهم، وأدخل على قلوبهم السرور؟».

ولكن العفريت، كان أصم. فها هوذا قلبه يخفق ويضرب ضربات كأنها القنابل. مسكين لم يصغ إليه أحد، لا العفريت ولا قلبه ...

وضاق الشيخ بنفسه ذرعاً. أيقتل نفسه؟ لقد فكر في ذلك، ولكنه انصرف عن هذه الفكرة سريعاً، وفضل أن يفر من القرية. ثم رأى أنه لا يطيق فراق أولاده، وقد رُزقهم وهو شيخ قد بلغ الخمسين. وفجأة التمعت عيناه. لقد فكر في الله. لم لا يصلي ركعتين، ويخلص لله النية، ثم يدعوه بدعاء تعلمه؟ لقد سمع هذا الدعاء من شيخ القرية، وحفظه عنه، ورسخ في ذهنه أن هذا الدعاء، وفيه توسل بالأولياء والصالحين، سريع الإجابة، عظيم التأثير. إذن فليدع الله. وسرعان ما قفز الشيخ فشمر عن ساعديه، ليتوضأ، وها هوذا قد توضأ، وتوجه إلى القبلة، يصلي، فلما فرغ من صلاته رفع يديه، والدنيا سكون وأخذ يدعو. وفرغ من دعائه، وانتظر قليلا، ولكن المعول ما زال يهدم بين ضلوعه، والعفريت ما زال يهمس في أذنه، والانقباض يغمر نفسه، والكآبة تشع حوله.

وجهد أن ينام مرة ثالثة، وأغفى إغفاءة قصيرة، وما لبث أن هب من فراشه، وقد عزم على أمر.

لقد ارتدى معطفه الممزق، ودلف برفق، بخطوات وئيدة نحو الصندوق الخشبي الصغير، لئلا تستيقظ زوجته وأولاده. ودس يده الراجفة في جيبه، فأخرج مفتاحاً صغيراً، فتح به الصندوق بهدوء.

لبث الشيخ لحظة مشدوهاً، وعيناه عالقتان بالصندوق تلمعان. ثم غاص بيده فيه، فأخذ صرة صغيرة بيد راعشة، وقلب راجف، وانتفض كالهر فهرول نحو الباب، تاركا الحوائج مبعثرة، والصندوق مفتوحاً.

سار الشيخ مثقل الرأس، يحمل همه على كتفيه. يسرع الخطو تارة، ويبطيء أخرى. وكان الهواء الثائر قد هدأ عصفه وخف زئيره، فلا تسمع سوى أنات النسيم الرقيقة يبثها فوق ورق الزعرور ... وكانت السماء موشاة بغيوم متناثرات هنا وهناك. وقد ظهر القمر شاحباً يترنح بين الغيوم، كأنه ثمل أو سكران ... وكانت القرية مغمورة بكآبة نشرها عليها ضوء القمر الشاحب. وكان الشيخ يمشي وهو ساهم يترنح. ولم ينس أن يبتعد عن مخفر الحارس لئلا يقبض عليه. لقد تمثل في خاطره كيف ساقوه إلى الحاكم لأنه سرق دراهم جاره الغني، وكيف أقسم أنه لم يسرق، لئلا يفتضح وقد شاب رأسه. وذكر ما أصابه منذ انفتل راجعاً إلى داره يحمل لأولاده اقتيات. وكان يخيل إليه، وهو يمشي، أن تلك الأنات التي ترسلها النسمات معناها «الدراهم ...» أما تلك الأشجار المنتصبة في الفضاء فهي أشباح، أو أناس يترصدونه ليقبضوا عليه جزاء يمينه الغموس التي حلفها اليوم. وخامره خوف شديد لا عهد له به من قبل. فكان يقشعر بدنه كلما ظهرت أمامه شجرة من وراء المنعرج، أو من يمين الطريق، كأنها الشبح. فإذا ما تبينها تنفس الصعداء وأحس كأن ماء حاراً صب فوقه، فيرفضّ جسمه عرقاً: ثم يعاود سيره بجد، ويتلفت من حين إلى حين يمنة ويسرة، ينظر أيتبعه أحد، ثم يحدق أمامه ليطمئن إلى طريقه الطويلة. وينظر إلى الأحجار المبعثرة على جنبات الطريق، التي تبدو كأنها جماجم الموتى، تلمع، وهي صلعاء، تحت ضوء القمر.

وخرج الشيخ من القرية وابتعد عنها، وبلغ داراً كبيرة منعزلة قامت على رابية. وطرق سمعه أصوات عربدة تصدر من الدار فتقدم من نافذة الدار. فرأى النور يتدفق منها، فسائل

نفسه ، لم ينهره الحارس إذا رأى النور فى عليته ، ويسمح للحاكم أن ينير غرفته ؟ ثم حدق فى ثقب من النافذة ، فرأى مائدة حفلت باللحوم والأطعمة والأشربة . ورأى الحاكم ، وقائد الجند يكرعون الشراب كرعاً ، ويلتهمون اللحم التهاماً ، فارتد بصره ، وذرف دمعة ، وصعد حسرة .

وتعالت أصوات المعربدين . لقد حار فى أمره ، إنه هنا قائد الجند الفظ الغليظ ، ذو العصا الضخمة ... ولئن طرق الباب ، فإنه ليخاف عصاه ، وهو يخشى أن ينهره الحاكم ، أو يسلمه للجند . إنه الحاكم ، لا يخيفه أحد ، ولا يحفل بإنسان .

وهجمت على رأسه فكر سود كالخفافيش ، فذهل . ونبهه همس ناعم . وخفق قلبه . وهم أن يعود . فارتجف ، واصطكت ركبتاه خوفاً من العفريت الذى يرافقه ، والذى سيلقاه فى غرفته ، والذى سيؤنبه على السرقة ، ويلحف عليه برد الدراهم ، ففضل أن يضربه القائد ألف ضربة ، وأن ينهره الحاكم ألف مرة ، على وخزات العفريت ، ولسعات الضمير .

وتقدم من الباب ، ومد يده المرتجفة ، فدقه دقات ضعيفة ، وقلبه يخفق .

لم يسمع الشيخ جواباً ، فلقد كانت عربدات السامرين تحول دون سماع دقات الباب ؛ فأعاد طرق الباب مثنى وثلاث ، وفجأة هدأت الأصوات ، وسمع صوت ينادى فيشق سكون الليل :

— مين ؟

فتلعثم الشيخ ... وعاد الصوت يسأل :

— مين ... ؟

فنادى الشيخ :

— أنا ... أنا .

— من أنت ؟ ..

واقترب الصوت ...

— إنها جريمة ، لا بد ... أوف ! فى النهار شغل ، وفى الليل شغل ... وفتح الباب ، وظهر الحاكم ، ومن ورائه القائد .

وأخذ الحاكم يحدق فى الشيخ ، ولقد حسبه خادمه أحمد :

— أحمد ... شو ، فى جناية ... مين مقتول ... مين ...

وقال القائد وهو يتلعثم :

— قبضتم على القاتل ... هو فى السجن طبعا ... مرحى ... أهرب ؟ ... لا ... لا ...

وارتبك الشيخ وقال :

— لا ... أنا الشيخ جاسم :

وحدق فيه الحاكم وقال :

— جاسم ؟

— نعم ، جاسم ، الذى أخذ الدراهم ...

ومسح الحاكم عينيه بكفيه وقال :

— معك دراهم المقتول ؟ كيف أخذتها ... اقبضوا عليه ...

وردد القائد :

— هيا ... اقبضوا عليه ...

واضطرب الشيخ . والتفت حوله ... ولكن لم يتقدم أحد ليقبض عليه ...

وعاد الشيخ يقول :

— أنا الذى أقسمت اليوم يمينا ، إنها يمين كاذبة . أنا الذى سرقت الدراهم ... لقد جئتك بها ، والعفريت يتبعنى ، يضرب فى قلبى . خذها ... ياسيدى ... أفضل أن أجوع ، ولا أتذنب خذها ... لا أريدها !

ورمى الشيخ بالصرة ، وانفتل يهرول ...

وقهقه القائد ، وهو يقول :

— رزق جديد ... هو لا يأخذها ؟ هه ... نحن نأخذها ... هات ، هات ...

***

وابتعد الشيخ عن الدار . فنظر إلى الأرض ، وإلى السماء ، ونظر أمامه وخلفه ، وعن يمينه وعن شماله . إنه لا يسمع الآن شيئا . قلبه لا يخفق كذى قبل ، وكأن جبالا رفعت عن كتفيه وأحس بالنسيم اللطيف يدغدغ رئتيه ... ورأى القمر كألطف ما يكون . لقد تغير كل شىء ، وها هو ذا يبتسم ، رغما منه لقد أحس بالفرح ، فانطلق يسرع فى مشيه وهو يتمتم :

— آه ... لقد استرحت ... الآن أنا سعيد ... !

(دمشق) صدوح الدين المنجد